

تطبيق المناهج السيولوجية في فهم المجتمع الجزائري:
د. قدوسي محمد — جامعة سيدي بلعباس

هناك جملة من الأسئلة المنهجية نحاول الجواب عليها في هذه الورقة:
"لا تكون السوسيولوجيا علم نافع إلا إذا وضعت المعنى لحيات تفتقد

للمعنى"

ماهي السوسيولوجيا كعلم : لماذا بالضبط السوسيولوجيا : ماهي خصائصها بالمقارنة مع العلوم الأخرى . وخاصة نحاول التركيز على إمكانية السوسيولوجية ومساهمتها في الفهم الحقيقي للمجتمع الجزائري . او كيف تساعدنا السوسيولوجيا في حياتنا اليومية ؟ .

مقدمة :

إن البحث العلمي هو حاجة موضوعية , لا تستدعيها فقط الرغبة في المعرفة ، بل تتطلبها أولا وقبل كل شيء حاجة المجتمع لتجاوز تأخره التاريخي الشامل . فنحن في الوطن العربي عامتا وبالتالي في الجزائر نعيش وصف خاص في تاريخنا المعاصر، وعندما نقيس هذا الوضع على الأوضاع السائدة في الغرب الأوروبي ندرك أشكال التفاوت القائمة(1) .

فمشكلتنا في العالم العربي هو جهلنا لواقعنا المجتمعي المعاش ، أو معرفته بطريقة معكوسة أو منقوصة . لأننا لا نغير الاهتمام الكافي والصريح للعلم ، وبالتالي إعطاء الكلمة للعلوم المختصة في المعرفة الاجتماعية بكل تجلياتها وخاصة إعطاء الفرصة إلى السوسيولوجية كعلم مختص في الفهم والتفسير السلوك الإنساني والاجتماعي، ومن هنا محاولة فهم حقيقة المجتمع المدروس (2)

فالتحكم العلمي في أي مجتمع يقوم أساسا بالاعتماد على أدوات وتقنيات علمية في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية . فبعد ما نسأل أنفسنا لماذا تقدم الغرب و تأخرنا نحن ، تجيب النظرة القاصرة سبب تقدمهم وتطورهم هو اعتمادهم على التكنولوجيا والعلوم الدقيقة .

بينما الحقيقة هي عكس ذلك ، في بلاد الغرب اعتمدوا أساسا على العلوم الاجتماعية لفهم واقع مجتمعاتهم ، و استعمالهم للعلوم الاجتماعية ارتكز أساسا على تناول العلمي والمنهجي لمعالجة ظواهر الحياة اليومية .

ولذلك نجد أن تنمية وتطور أي مجتمع تتوقف على تقدم كافة العلوم بما فيها العلوم الاجتماعية حيث لا نستطيع التحكم في صيرورة المجتمع دون جهد في التفكير حول حقيقته الخاصة و مستويات ابنيته المختلفة . ولا يمكن التقدم دون تنمية كفاءته المحلية .

ماهي السوسيولوجيا :

السوسيولوجية أو علم الاجتماع هو علم حديث النشأة . بدأت إرهاباته الأولى مع الفلسفة الاجتماعية (مع الفلاسفة القدامى) لكن الفلسفة الاجتماعية رغم أن موضوعها كان هو المجتمع إلا أنها تختلف عن علم الاجتماع ، لأنها من جهة هي علم معياري ، يبحث في ما ينبغي ان تكون عليه الأشياء . ويعطي حلول للظاهرة مباشرة . بينما علم الاجتماع يبحث فيما هو كائن فعلا (3).

وعالم الاجتماع كذلك ليس هو مصلح اجتماعي. هذا الأخير ينطلق من أسس أخلاقية دينية ، ويحكم على الظاهرة الاجتماعية بالصحة والمرض ويعطي حلول جاهزة انطلاقا من النص الديني . بينما عالم الاجتماع ينطلق من الظاهرة ولا يحكم عليها، فعنده كل الظواهر قابلة للدراسة (طلاق- الزواج- عنف ... الخ) .

هذا علم بدأ مع العلامة ابن خلدون في علم العمران البشري ابتداء من القرن 14 وتأسس على يد الفرنسي أو جيست كونت في القرن 18 (4). ولكل علم موضوع الدراسة ومنهج الدراسة ومن هنا فما هو الموضوع ومنهج الدراسة بالنسبة لعلم الاجتماع ؟ .

موضوع الدراسة في علم الاجتماع :

إن علم الاجتماع هو علم دراسة الإنسان والمجتمع دراسة علمية ، تعتمد على المنهج العلمي وما يقتضيه هذا المنهج من أسس وقواعد وأساليب في البحث . وهذا البعد الأساسي في التعريف يعد حصاد تطورات علم الاجتماع منذ أن ولد على يد العلامة ابن خلدون الذي حدده بأنه علم العمران البشري وما يحويه هذا العمران من مختلف جوانب الحياة الاجتماعية المادية والعقلية (5) . ومرورا بأوجست كونت الذي اشتق كلمة سوسيو لوجية من مقطعين من اللاتينية واليونانية ، يشير بهما إلى دراسة علمية للمجتمع وقد يرى البعض أن التعريف للعلم وتحديد بدراسة الإنسان والمجتمع يجعله يتداخل مع الفروع الأخرى من العلوم الإنسانية. و بالتالي يطرح السؤال ما الذي يميز هذا العلم من غيره من العلوم ؟ .

إذا كان كل علم من العلوم الإنسانية يدرس جانبا أو أكثر من جوانب الإنسان و المجتمع ، فإن علم الاجتماع يدرس المجتمع ككل في ثباته وتغيره (6). ويدرس الإنسان من خلال علاقته بالمجتمع ، أي أنه أكثر شمولاً من أي من العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى.

نستنتج مما سبق أن اهتمام علم الاجتماع الأساسي ينصب على البناء الاجتماعي ككل ، و ما يحتويه هذا البناء من مكونات . و ما يطرأ على هذا البناء نفسه من تطورات و تغيرات

المنهج :

يقوم المنهج السوسيولوجي على أساس فهم النشاط الاجتماعي عن طريق التفسير. أي البحث عن العلاقات التفاعلية بين الوحدات الإنسانية داخل المجتمع . وهو يحاول الإجابة عن التساؤلات من قبيل ، كيف ينتظم الأفراد داخل المجتمع؟ ولماذا يحدث التفاعل بينهم كوحدة متشابهة ؟ و ما هو حدود التأثير الذي تمارسه الخلفيات الاجتماعية والاقتصادية والدينية والإيديولوجية... الخ(7) .

وفي السوسيولوجيا يوجد تيارين على مستوى المنهجية .

- تيار يمثل السوسيولوجي الألماني ماكس فيبر .

- وتيار يمثل السوسيولوجي الفرنسي إميل دوركايم .

التيار الأول هو تفاهمي يركز على الفرد يحاول فيه فهم الظاهرة الاجتماعية من الداخل ، بينما التيار الثاني الذي تمثله المدرسة الفرنسية فهو التيار التفسيري يحاول فيه السوسيولوجي دراسة الظاهرة من الخارج . ويعتبر الظاهرة الاجتماعية كشيء لأن الظاهرة هي من إنتاج الجماعة باستقلالية عن الأفراد .

ما هو هدف السوسيولوجية ؟ :

يقول أميل دور كايم السوسيولوجي الفرنسي " بأن الشعور بضرورة دراسة المجتمع يرجع إلى طابعه الغير السوي وإلى الفوضى السائدة فيه ."

ومن هنا فالسوسيولوجيا هي معاينة الممارسات الاجتماعية وهي تتطور ، بهدف فهمها وتأويلها على ضوء المعنى الذي يقصده الفاعلون أنفسهم .

فهو ذلك العلم الذي يرمي إلى الفهم بالتأويل للنشاط الاجتماعي ، ثم إلى التفسير السببي لتطور ونتائج هذا النشاط . وبالتالي هي تهدف إلى إدراك المعنى لنشاط أو سلوك ما .

وهذا لا يكون إلا من خلال المحاولة الكشف عن الحقيقة التي غالبا ما تكون مخفية أو منسية أو غير مصرح بها . فموضوع السوسيولوجيا ليس المجتمع ، أقل من ذلك الظاهرة الاجتماعية ، بل هو المنسي والمخفي والغير مصرح به في الظاهرة الاجتماعية (8) . لماذا ؟ .

خاصة في المجتمعات النامية أو المتخلفة . هذه المجتمعات الغير ممأسسة أين الحقيقة الاجتماعية لا توجد في ظاهر الأشياء .

في الرسميات ، بل الحقيقة يجب البحث عليها فيما وراء الظواهر .

باعتبار أن السوسيولوجية حسب السوسيولوجي موريس انجرس ، هي كيفية تحويل الوقائع الاجتماعية إلى موضوع سوسيولوجي ، من خلال استنباط ما وراء الظواهر حقائق الأشياء ، بطرح الأسئلة الجيدة

وبالتالي السوسيولوجية هي محاولة الكشف عن الحقائق الاجتماعية المختلفة ، اقتصادية - ثقافية - سياسية ... المستورة والغير ظاهرة في المجتمع .

فعندما ننزل إلى الميدان كسوسيولوجيين بهدف البحث والتقصي ، لا نجد مواضيع سوسيولوجية جاهزة وظاهرة بل نلاحظ في الميدان مجموعة من تفاعلات وممارسات لا تعبر بالضرورة عن حقائق الأشياء . خاصة في المجتمعات المتخلفة

الغير ممأسسة و التي تحكمها غالبا الفوضى والشذوذ . فنحن ننتج واجهات الأشياء وليس حقائقها .

هذا من جهة ومن جهة ثانية هناك فرق بين الظاهرة الاجتماعية الموجودة في الميدان بكل تفاعلاتها وتشعباتها وبين الموضوع السوسيولوجي الذي يبنى نظريا انطلاقا من الواقع ، حسب الإبستمولوجي الفرنسي غاستون باشلار . إضافة إلى أننا لا نعي بالضرورة واقعنا المعاش وعيا حقيقيا (فليس كل ما هو معاش مدرك) (9) .

ومن هنا و بطرح السؤال ، لماذا السوسيولوجية ؟ :

لأننا كلنا كفاعلين اجتماعيين ، في أغلب الأحيان وفي أحسن الأحوال نعيش في واقعنا الاجتماعي تمثلات الأشياء وليس حقائق الأشياء . (en vie pas directement la réalité mais des représentations sur la réalité.)

فنحن ضحية تصورات اجتماعية تتشكل في الذهن تعطينا فقط الانطباع بمعرفة الواقع ، مثل نجد أن الخريطة الجغرافية لسيدي بلعباس تمثل سيدي بلعباس لكن ليست هي مدينة سيدي بلعباس .

أو مثلا القطع النقدية تمثل سيادة أي بلد، لكن ليست هي السيادة. فهذه القطع ممكن أن تتغير أو يتجاوزها المجتمع في مرحلة معنية من تاريخه. و بالتالي أهمية السوسيولوجية تكمن في قدرتها على إعادة تكوين صورة عن الحياة الاجتماعية لأي مجتمع .

فمهمتها هي محاولة الوصول إلى حقائق ذات معنى من خلال حسها النقدي .

(10) LA SOCIOLOGIE EST A VOCATION CRITIQUE.

- مساهمة السوسيولوجية في فهم المجتمع الجزائري:

لمحاولة الجواب على هذا السؤال في رأينا يكون عبر التطرق إلى تحديين مطروحين على المجتمع وخاصة على السوسيولوجيين أو المنشغلين بهذا العلم .

- التحدي الأول خاص ببنية هذا العلم في حد ذاته ، موضوعه هدفه ، كيفية تدريسه ما المراد منه الخ

- التحدي الثاني متعلق بالمجتمع ، هذا الأخير الذي هو في حاجة إلى سوسيولوجية جزائرية نابعة من التراث يستطيع بها أن يفهم واقعه ، خاصة في ظل التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي مسته مؤخرا .

هذان التحديان يلخصهما السوسيولوجي الفرنسي بيار بورديو في كتابه الأساسي Le métier de sociologue حول هوية الباحث الاجتماعي والذي تمثلت حسبه في معلمين أساسيين .

-أ- على الباحثة الاجتماعي أن يكون على إطلاع على معالم الفكر السوسيولوجي ، من زاوية الكشف عن ظروف إنتاجها المحددة بالمكان والزمان وخصوصية المجتمع المنتجة ضمنه .

ب- على الباحث الاجتماعي أن يهيء معرفة ميدانية مجزأة ، ومتناسقة حول أهم المعطيات الثقافية التي يفرزها واقعه الاجتماعي . ومن ثمة تحديد أهم الإجراءات المنهجية التي تضمن تجاوز جملة العقبات الإستمولوجية. وذلك لتحقيق النجاح الفكري .

انطلاقا من هذا التحديد ، لنا أن نتصور الدور الذي يمكن أن يؤديه الباحث الاجتماعي ، من إسهام علمي سوسيولوجي . من خلال الفعل السوسيولوجي أو بالأحرى الممارسة السوسيولوجية .

ففي الجزائر الممارسة السوسيولوجية يلخصها السوسيولوجي الجزائري جمال غريد في المراحل التالية (11).

- **المرحلة الأولى** تميزت بالسوسيولوجية الاستعمارية فالفرنسيين من ضباط وموظفين ورجال الكنيسة قد قاموا منذ بداية الاحتلال بدراسات كثيرة تاريخية واجتماعية كان هدفها استعماري محض (يعني محاولة معرفة المجتمع المحلي من خلال هذه الدراسات بالقدر الذي يسمح به سيطرته واحتلاله) . فالسلطات الفرنسية كانت قد أمرت بإجراء بحث شامل على غرار ما جرى في مصر أثناء الحملة النابليونية .

-**المرحلة الثانية** بعد الاستقلال في الستينات و خاصة في السبعينات في القرن الماضي ، أين كانت السوسيولوجية كعلم مرتبط بالمشروع السياسي . أي كان هدفها هو كيفية تجنيد المجتمع الجزائري وانخراطه في المشروع المجتمعي الجديد (الإيديولوجية الاشتراكية بثوراتها الثلاثة الصناعية- الزراعية و الثقافية) وهنا هذا العلم لم يكن متحررا من الماركسية . فما كان يسمى بالسوسيولوجية كان في الغالب المادية التاريخية فقط .

أما مرحلة الثمانينات والتسعينات ، فإذا كانت في المرحلة السابقة تطور مفرط للسوسيولوجيا و غياب أو تغييب المجتمع وقضايا (فاذا نزل السوسيولوجيين إلى الميدان في هذه المرحلة ، كان من أجل محاولة زرع أطروحاتهم النظرية . يعطي مثال هنا الكاتب على دراسة ميدانية طلباتها كتابة الدولة للتخطيط في بداية السبعينات في منطقة واد ريغ) .

لكن نجد هذه المرحلة 80 تكاد تتميز بالعكس تماما ، ففيها احتلت قضايا المجتمع المختلفة مكانة الصدارة بينما تراجع وضعف مقاربتها العلمية .

ومن هنا أمكننا طرح السؤال التالي كيف يمكن لعلم الاجتماع أن يساعدنا في حياتنا ؟ .

إن الممارسة السوسيولوجية هي اختزال لإطار تصوري نظري في علاقته بواقع اجتماعي له خصوصيته . فهي تصور إدراكي ذات معاني مختلفة يتبادل فيه المعطى المعرفي و المعطى الاجتماعي (12).

فمن هنا أهمية السوسيولوجيا في المجتمع الجزائري تكمن كما رأينا في قدرتها على إعادة تكوين صورة العالم و المجتمع ، بطريقة تكون هذه الصورة اقرب إلى الحقيقة . لماذا ؟

فنحن في الجزائر اليوم ونتيجة لعدة اعتبارات محتاجين إلى علم نقدي يكشف الرهانات و المصالح العلنية و الخفية في المؤسسات الاجتماعية و في علاقاتها بالمجموعات الاجتماعية المسيطرة .

فمن جهة المجتمع الجزائري ما زال مجتمعا متخلفا غير معقلن ، تحكمه الفوضى و الشذوذ في اغلب الأحيان . هو مجتمع غير مرئي حسب عبارة السوسيولوجي الجزائري العايدي عبد الكريم . مجتمع غير ممأسس ، حقيقته الاجتماعية بكل تجلياتها توجد في الغير رسمي . la réalité social et dans l'informel (13)

و لذي نحن محتاجين أكثر من أي وقت مضى إلى السوسيولوجيا للكشف عن الحقيقة . هاته الأخيرة التي تسمح لنا بالفهم الأفضل لجملة من الظروف الاجتماعية . مما يعطينا عادتاً فرصاً أفضل للسيطرة عليها .

فنحن بحاجة إلى معرفة واقعنا معرفة حقيقية تسمح لنا بتجاوز الظواهر المرضية فيه

و من جهة أخرى نحن في حاجة إلى السوسيولوجيا نتيجة التغيرات التي مست عمق المجتمع على كل المستويات ، الاجتماعية ، الاقتصادية ، و السياسية....

- حيث سياسيا انتقلنا إلى التعددية الحزبية ، حتى وان هي محتشمة ، بعد ما كان التمثيل السياسي للحزب الواحد منذ الاستقلال إلى غاية دستور 1989 .

- اقتصاديا انتقلنا إلى اقتصاد السوق متجاوزين الاقتصاد الموجه لفترة الستينات و السبعينات .

وكل ما انجر عن ذلك من تحولات اجتماعية . فالعولمة الاقتصادية و الثقافية...هي اليوم على عتبة ديارنا و تحاصرنا من كل جهة.

ففهم الظواهر و الكشف عن حقيقتها هي من مهام هذا العلم . الذي يجدد التساؤلات باستمرار حول المجتمع .

و يمكننا الآن إعطاء أمثلة عن الواقع الجزائري من أجل توضيح المعنى ، وخاصة الفرق بين الرسمي و اللارسمي :

- المثال الأول خاص بظاهرة رياضية في الرسمي والمتعارف عليه ، كيف أنها في حقيقة الأمر تتحول إلى ظاهرة سياسية باستمرار متجاوزة الإطار الرسمي .

كلنا نعرف أنه منذ الإستقلال إلى غاية دستور 1989 كان التمثيل السياسي محتكراً من طرف الحزب الواحد حزب جبهة التحرير الوطني . ولم يكن يسمح بإنشاء أحزاب سياسية . والمتجمعات المحلية لم تكن ممثلة إلا في أقطار الحزب الواحد .

هنا في المجتمع القبائلي مثلا كانت جمعية رياضية كما موجودة في كل المدن يتهيك من خلالها المجتمع المحلي من أجل مزاولة الرياضة . و بالتالي كانت JET قناة رياضية

. الملاحظ السوسولوجي لواقع الجمعية كان يلاحظ العديد من المؤشرات كان يدرك من خلالها إن هذه الجمعية تتجاوز صلاحيتها كتعبير رياضي . فمثلا :

- ضم اللاعبين والطاقم المسير كان من سكان المحليين فقط .
- نوعية الشعارات التي كانت تتردد في الملاعب خاصة في ملعب اول نوفمبر 1954 .

- نوعية الأعلام التي ترفرف في المدرجات .
- كيفية جلب الأموال للجمعية الخ .
فالقناة الوحيدة الموجودة التي كان يعبر بها السكان المحليين آنذاك عن تواجدهم الثقافي و السياسي ، زيادة على ما سبق ذكره ، هي الجمعية الرياضية (جمعية الكرونك تيزوزو) .

وبالتالي فالصورة الذهنية التي كان يكونها المجتمع و التي كانت تعبر عن الثمالات الإجتماعية للمجتمع عن الجمعية كانت عبارة عن قنوات رياضية . إضافة إلى ما كانت تؤكد الرسميات ، من القوانين والشرائع .
بينما في حقيقة الأمر كانت تمثل الجمعية قناة سياسية إيديولوجية للمجتمع المحلي يعبر بها عن طموحاته وتعبيراته السياسية نتيجة غلق المجال السياسي آنذاك .
- أما المثال الثاني يخص الواقع الجزائري بعد 1989 وصعود الجبهة الإسلامية للإنقاذ كحزب معارض نتيجة دستور 1989 .

فبعد الانتخابات البلدية و التشريعية التي فازت بها الجبهة المنحلة ، وبعد كل ما حدث بعد ذلك تعطينا الجبهة المنحلة مثال جيد عن الاختلاف الموجود في الرسمي للظاهرة و الحقيقي .

فمثلا ظاهرة الصلات هاته الأخيرة التي هي عبارة عن صلة روحية بين العبد و ربه . لكن القراءة السوسولوجية لهاته الظاهرة و استنادا لعدة مؤشرات ، توحى بأنها كانت تتجاوز هذه الرسميات . فمثلا :

- إعطاء الأوامر من قيادة الفيس باقامت الصلات كشعائر دينية في الأماكن العمومية .

- زيادتا على إقامتها و تنظيمها في جماعات جماعات .
- إخراجها من المساجد ، الموقع الأصلي لها .
- التجمهر بها في الشارع (ونعرف في السوسولوجيا انه إذا أردنا بأي ظاهرة أن ننتج منها الفعل السياسي نلقي بها في الشارع) .

هدف ذلك لم يكن تقوية العلاقة الدينية ، بل إعطاء الانطباع من الجبهة المنحلة إلى السلطات بأنها في موقع قوة en rapport de force . و أنها تمثل الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري ، وانه لا مجال للتراجع .
فالعلاقات إذا تمثل رسميا علاقة روحية و شعائر دينية ، هنا في هذه المرحلة كانت و نتيجة لما رأينا ، قناة سياسية تريد تمرير خطاب سياسي إيديولوجي من المعارضة إلى السلطة .

الهوامش:

- (1). د. عبد الحميد براهيم، في أصل الأزمة الجزائرية، مركز دراسات الوحدة العربية. 2001. ص25
 - (2). أ- حيسين هيداوي، التاريخ و الدولة، ما بين ابن خلدون و هنبعل، دار الباقي. بيروت، ص13
 - (3).
 - (4). عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص
 - (5). علم العمران هو مصطلح أطلقه العلامة ابن خلدون على دراسة كل جوانب المجتمع من معاش و اجتماع...
 - (6). عبر عليها عالم الاجتماع الفرنسي أوغست كونت، بالاشاتيك و الديناميك
 - (7). د. ميلود طواهري، ما الفائدة من علم الاجتماع محلة الأدب و العلوم الانسانية، العدد 06، سنة 2007، ص 209
 - (8A). Français : « demande sociales et commandes publiques » recherche sociale N° 136, 1995
 - (9). J.P Durand sociologie contemporaine ed. vigot, paris 1997, (10) P172 OP, Cit P 173
 - (11). Djamel Gurid, l'exception algérienne ed, casbeh alger 2007, P138
 - (12). M. Foucade et les mots et les choses PUFI, 1996 P 362
 - (13). يقول هبغل في هذا الصدد : كيف يمكن دراسة لصفة عقلانية مجتمع غير معقلن في الاساس ؟
- المراجع :**
بالعربية :
- (1). د. عبد الحميد براهيم، في أصل الأزمة الجزائرية، مركز دراسات الوحدة العربية. 2001.
 - (2). أ- حيسين هيداوي، التاريخ و الدولة، ما بين ابن خلدون و هنبعل، دار الباقي. بيروت
 - (3). د. هلال الصلح، المجتمع العربي الحديث و المعاصر دار الفرابي 1998
- المجالات :**
مجلة الآداب و العلوم الانسانية، العدد 06 سنة 2007
مجلة انسانيات CRASL، عدد 08 سنة 1999
- بالفرنسية :**
- 1). D. Guerid, l'excetion algerienne ed. casabah alger 2007
 - 2). M. Foncault les mots et les choses ed. PUFI 1966.
 - 3). J.P Durand socialogie cantemporaires ed. vigot, paris 1997